(١٠)

مصنع الجاهلية

« هذا غول الجاهلية ينهش المجتمع من جديد والناس – عامة وأوساطا وعظماء – في غيهم لاهون، او في شهواتهم غارقون ، والكلام كثير ، والعمل قليل ، وكأنما فقدت الألفاظ دلالاتها أو تأثيراتها فأصبح الدين كالتاريخ يدرس او يعرض ولكنه لاينفذ .

وما أشد حيرة الداعية إلى الله حين يحتال للقضاء على غول الجاهلية الرهيب الباغي . . . وكيف والغول في يده اسلحة الشهوة والجاه والشهرة والمال والمدنية والآلات والمخترعات ، وما اعجب ولذ وطاب ، من الثياب والطعام والشراب ! . . .

فهل من شجاع مقدام يقيل بسلاحه الروحي الجبار ليقصم ظهر ذلك الغول الرهيب؟ . . .أعقدتم يامسلمة اليوم عن إخراج مثل ذلك الشجاع العملاق »

الشرباصي

مصرع الجاهلية

من الأساطير التى سمعناها فى الصغر وبقيت فى غضون الذاكرة وبعض ثنايا ها ان رجلا اعتدى عليه عفريت من الجن بمثل ما كان يعتدى به الجن على البشر فبرز الرجل بكل ما أوتى من حول وطول وبكل ماقدر عليه من سلاح ومشقة ليقتله .

هجم الرجل على العفريت بكل سلاح ماض وسيف باتر وسهم مصيب ونثر كنانته ، ولم يدع فى القوس منزعاً ولكنه لم ينكأ عدوه ولم يصب منه مقتلا.

وما زال الرجل يعيد الكرة بعد الكرة ويجرب سلاحاً بعد سلاح والعفريت ساخر منه غير محتفل به كأن من نفسه على أمان ومن سهام الرجل وهجماته فى حصن حصين .

حار الرجل فى أمره وأعياه أمر العفريت وكاد يقطع من قتله الرجاء ذ أخبره أحد العقلاء أن روح هذا العفريت فى حوصلة ببغاء وهذه الببغاء فى قفص من حديد وهذا القفص معلق فى غصن شجره وهذه الشجرة فى غابة كثيفة يسكنها سباع ضارية وحيات فتاكه وعقارب سامة ودونها خرط القتاد وحولها شم الجبال

وما زال الرجل يطلع جبلا بعد جبل ويقطع واديا بعد واد ويقتل وحشيا بعد وحشى حتى خلص الى هذا القفص وخنق هذه الببغاء ولم يكد يقتلها حتى حدثت رجة عظيمة دارت بها الارض الفضاء وأظلمت بها آفاق السماء وصاح العفريت صيحته الاخيرة وكان حتفه هامدة لاحراك بها وهكذا قتل الرجل عدوه بعد مالقى من عرف القرن .

لعلك سمعت هذه الاسطورة من عجوز فى بيت تحكيها لاحفادها أو أسباطها فمررت بها مستهزئا وقلت .

حديث خرافة يا أم عمرو

نعم انها لحديث خرافة وأسطورة من أساطير الاولين . ولكنها تفيدنا بأن

كل حى له مقتل ووريد ولا يؤثر فيه عدو حتى يصيبه فى مقتله ويقطع منه الوريد وإن دون ذلك المقتل وحول هذا الوريد حواجز وحصونا .

قد تسلط على الامة الإسلامية عفريت من الحياة الجاهلية واعتدى عليها بصنوف من الجنال وضروب من الاذى والوبال ظهرت فى كثير من أخلاقها وأفعالها كاستخفاف بأحكام الشرع وتجرؤ على المعاصى ووقوع فى محارم الله واستعباد لعباد الله وامعان فى الشهوات واسراف فى سبيل المتع واللذات وتهافت على الحشائش والرذائل وفرار عن مكارم الاخلاق والفضائل « وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وان يرواسبيل الغى يتخذوه سبيلا » .

والناس طبقات عامة ، وأوساط ،والعظماء.

فأما العامة فساكين تدور حولهم رحى الحياة بسرعة لا يرفعون فيها إلى الدين والسعادة الأخروية والإستعداد للموت رأسا وإنما همهم أن يؤدوا ضرائبهم ويجمعوا الإيام فراغهم ويكسبوا قوت يومهم ويكسوا عيالهم فهم يكدحو فى الحياة كدح الحمير والثيران لا يتعبون إلا للراحة الموهومة ولا يستريحون إلا للتعب الواقع فهم من البيت إلى الدكان ومن الفراش إلى المصنع أو السوق أو الإدارة ، ومن نصب إلى نصب ومن هم إلى هم لا تنتهى همومهم ولا تنقضى متاعبهم حتى إذا جائتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها .

وأما الاوساط فهم أسوأ منهم حالا و أكدر منهم بالا عنيهم الله بالحرص والجشع ينظرون دائما إلى من فوقهم ولا ينظرون أبدا إلى من دونهم فهم فى هم متواصل وأحزان متسلسلة وشقاء مستمر وتذمر جار وشكوى قائمة وأنين باق يجرون فى رهان لا ينهى ويسابقون جيادا لا تكل ولا تسبق ، لايزال قصب السبق بعيدا كلما انتهوا إلى غايته رأوا غاية أخرى فجروا ورائها وهى تبتعد عنهم كما يبتعد الافق من الطفل الذى يحاول مسكه وشعاع الشمس الذى تجتهد لقبضه وهكذا يتفلت منهم « المثل الاعلى » فى الغنى والثروة والرخاء والجاه فيموت الواحد منهم كئيبا منكرا لم يستعد ليوم الجد ولم يأخذ لنفسه عدتها ويأتيه الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فاصدق وأكن من الصالحين .

وأما العظماء - من الملوك وأبناء الملوك والامراء فانهم يريدون أن يلتهموا الدنيا طولا وعرضا وينتهبوا المسرات جرما وركضا لا يشفى غلتهم ولا يروى غليلهم وهم من دقائق الراحة إلى دقائق ومن بدائع الى بدائع ومن ابتكار إلى ابتكار ومن لذيذ فى الطعام والشراب إلى المذ ومن حديث من مستحدثات المراكب والقصور والازياء إلى أحدث لا تكفيهم فى ذلك موارد قطر بأسره ومنابع ثروة أمة بطولها حتى يلجأوا إلى استقراض وتجارات وضرائب جديدة وأتاوات ولا يبالون فى سبيل ذلك أن يرهنوا بأيدى عدوهم رداء الزهراء أو كساء أبى ذر ، أو شملة أويس او مصحف عثمان او صمصامة عمرو بن معدى او رمح الزبير او بردة كعب بن زهير ويهيئوا صبوحا او غبوقا .

وقد هجم على عفريت الجاهلية جيش من المصلحين فصاحوا به من كل جانب ورموه عن قوس واحدة ولكن لم ينكأوا عدوهم ولم يصيبوا منه مقتلا.

ألقى الوعاظ والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر دروسا فى الاخلاق واحاديث فى الترغيب والترهيب ، طمعوا الناس فى الجنة وحذروهم من النار بشروهم بالوعد وخوفوهم من الوعيد فسمع الناس كل ذلك فى هدوء ولم يحرك منهم ساكنا ولم يغير منهم خلقا .

الف المؤلفون كتبا جاؤا منها بكل رقيق مرقق اوردوا فيها حكايات زهد للعمرين وتقشف على بن ابى طالب - ومواعظ الحسن البصرى ، وكلمات ذى النون المصرى ، ورقائق الفضيل بن عياض وزهديات ابى العتاهية وفصاحة الواعظ ابن الجوزى ، وتحليل الامام الغزالى .

قوارع تبرى العظم من كلهم مضى

فقام الاغنياء والامراء وابناء الملوك فاقتنوا هذه الكتب وزينوا لها مكاتبهم وتحدثوا عنها إلى ندمائهم وزائريهم فى لباقة ورشاقة ولكن لم تنفذ سهامها من العيون الى القلوب ولم تجاوز احاديثها تراقيهم .

قام الخطباء البارعون فألقوا خطبا اسمعت الصم واستنزلت الصمم فسمعها

هؤلاء وأثنوا على براعتهم وفصاحتهم ومضوا لسبيلهم لم يبكوا على زلة ولم يقلعوا عن سيئة ولم يحدثوا لله عهداً .

لقد كان والله اقل من هذا يهز القلوب في الجوانح ويستفرغ الدموع من الشؤن ويرجف القصور ويقلب عروش الملوك ، ويجعل من ابناء السلاطين والأمراء مثل ابن ادهم وشقيق البلخي ؛ يسمع احدهم - وهو خارج في قفص او رائح الى لهو قارئا يقرأ « الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم بذكر الله وما نزل من الحق » الآية فيقول والله لقد آن ، والله لقد آن ويرمي آلات اللهو ويخرج من ابهة الملوك وحشمة السلاطين الى تبذل الفقراء وتسقشف الزهاد ،

فهل فقدت الالفاظ على تعاقب الايام معانيها ، ام اعتلت الاذواق ام استعجمت اللغات ، ام ماذا ؟

ان شيئا من ذلك لم يقع ولكن نفسية الإنسان تغيرت تغيرا عظيما .

كان امر الدين في الزمان الماضي - برغم جميع ادوائه وعيوبه الخلقية والاجتماعية - جداً غير هزل ، وكان امر الدين يعني كل واحد وهمه كما تهم الحقائق والامور الواقعة ، وكان دون في بعض الاحيان حجب من الترف والطبع والرسم وسوء المعرفة وقلة العلم فاذا ارتفعت هذه الحجب وتطرقت دعوة الدين الى القلوب لم يحل دون التوق واصلاح الحال شيء ، اما الآن فقد اصبح الدين موضوعاً تاريخيا او حديثا علميا بحتا ، وأصبح الحديث عنه في المجتمع العصري كالحديث عن كوكب المريخ وعجائبه وعن القطب الشمالي واخباره لا يعود على المتحدث والمستمعين بضرر او نفع ولا يطالبهم بعمل او ترك ولا يمسهم في صميم مسائلهم ولا يعني الانسان ولا يهمه في حياته الا بمقدار ما ينظرف بمعرفته ودراسته في بعض المجالس او ما يحادث به اهله عند الحاجة او ما يجلب به نفعا ويدفع به ضرا في مجتمع لا يزال يدين بالدين او يحترمه فليس له الا قيمته المادية المؤقتة .

وأصبحت الحياة وتكاليفها جد الجد ولب اللباب ، واصبحت مسائلها هم الشيخ ودرس الصبي وشغل الشاب ، واصبح الجهاد في سبيلها والنجاح في ميدانها مقياس الفطنة والذكاء ومعيار الطرافة واللباقة ورمز المروءة والشهامة.

وهنا يقف الداعي الديني حائرا في امره كيف يواجه هذه العقلية الهامدة والنفيسة الباردة في سبيل الدين ، انه واجه العقول الثائرة على الدين فأخضعها ببراهينه . ووجد شكوكا وريبا تمكنت من النفوس فسلها بحكمته وملأ القلب ايمانا وطمأنينه ولكن هاهنا يجد نفسه في موقف غريب لم يعهده ، فلا انكار ولا جحود ولا إباء ولا استكبار ، ولا عناد ولا اعتراض ، ولا دليل ولا فلسفة ولكن حياد تام في مسئلة الدين واستغناء عن كل مايتصل بالاخرة . وإخلاد الى الأرض ورضى بالحياة الدنيا واطمئنان بها .

هنا يقف الداعي حائرا في أمره كيف يواجه هذه النفسية ومن أي باب يدخلها انه يجد حولها غشاءاً من حب الدنيا والمال فلا سبيل اليها ولا نفوذ فيها إلا بطريق الدنيا والمال ، وان سبيل الدين غير سبيل المال وان طريق الغيب غير طريق الحس والشهود فماذا يصنع ومن أين يبدأ ؟

ان ألقى على اعلى القوم نصائحه ووجه اليهم خطابه وحكمته ونثر كنانته في الدين وأجلب عليهم بخيل العلم والبراهين فذهب كل ذلك فيهم سدى وأجابه لسان الحال قائلا « قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل انا عاملون » .

قرأنا في حكايات « ألف ليلة وليلة » ان سندباد البحري وجد بيضة عنقاء فظنها لكبرها وضخامتها وملاستها قصرا من الرخام فدار حولها لعله يجد بابا يدخل منه في داخل القصر ، ودار مرارا عديدة ولكنه لم يجد بابا وعرف بعد ذلك أنها بيضة عنقاء لاقصر من القصور .

كذلك يدور الداعي حول هذه النفسية المستديرة التي استهوتها الدنيا وغشى عليها حب المال أو الجاه فلا يجد فيها منفذا ينفذ منه الى النفسية وينزل في أعماقها فيقطع منها الرجاء وينقلب منها خاسئا وهو حسير .

إذن روح هذا العفريت الجاهلي هو الاخلاد الى الأرض والرضى بالحياة الدنيا والاطمئنان بها وعبادة المال والمادة .

هذا مقتل هذا العفريت وهذا امهره ووريده .

وانما ضاعت فصاحة الفصحاء ، وخطابة الخطباء وبلاغة المولفين وأصحاب اليراع واخلاص المخلصين وحكمة الحكماء لانهم لم يضربوا على الوتر الحساس ولم يصبوا العـــدو فى مقتله .

بلغت المادية أوجها فى عهد الاستيلاء الأوربى وأصبحت فلسفة وفنا وحياة ودينا وليس مظهر من مظاهر حياتها ولا مركز من مراكز نشاطها اليوم إلا والفضل فيه يرجع الى اوربا وسيطرتها السياسيه والاقتصادية مباشرة أو بواسطة والى غزوها التجارى العالمى .

نافس تجار الغرب . بدافع من حب الغنى والثروه واحتكار الأموال - فى الصناعة والإنتاج وغزوا بضائعهم الشرق وامتصوا بها دماءه ، ولم يقض ذلك لباناتهم لان نطاق الضرورة ضيق والجشع ماله نطاق ، فنافسوا فى إنتاج دقائق المدنية وفضول الصنائع وكماليات الحياةوصبوها الشرقصباواستهلكوا فى ترويجها كل ذكاء وأدب وفلسفة وسياسة ، واستغلوا سذاجة الشرقوحبه للدعة والفخر فما لبثت هذه الدقائق والكماليات ان دخلت فى اصول المعاش ولوازم الحياة فى الشرق واصبح الذى لايتحلى بها لايعد من الاحياء ولا يعامل فى المجتمع معاملة سواء واخذت تبلابيب الشرق واذهلته عن الدين والآخره وعن كل شىء غيرها فى الدنيا واهاجت عليه هموما لاارجاء لها وبعثت فيه شرها للمال لانهاية له واصبحت عليه الحياة جحيما لايسمع فيها الاهل من مزيد

ومايكاد الشرقى يصل الى هذا المنتجات وشروط الحياةعلى جسر من المتاعب والمصائب وعلى طريق من شوك وقتار ولايكاد يتحلى بها الا وتصبح هذه المستحدثات وآثاراً عتيقة وأطمارا بالية . ويهجم عليه الغرب بطراز حديث من المنتجات والمصنوعات فينكص على عقبية ويتزود لاقتنائها بالمال اللازم -بوجه مشروع أو غير مشروع ــ ولا يكاد يطلع بها على مجتمعه الا ويرحل المنسوخ ويحل الناسخ . وهكذا لايزال من حياته فى جهادمضن شاقومع المصانع الغربية والتصدير الغربى فى رهان دائم يسبقه فيلحقه ويلحقه فيسبقهولا يزال من عيشه

في مضض وغصص يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت .

أفسدت المدنية الغربية والتجارة الغربية طبائع أهل الشرق وأذواقهم على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ألانت منهم القناة وأطفأت فيهم جمرة الحياة . أذهبت منهم التمعدد العربي والتجلد العجمي وأحدثت فيهم التخنث والتأنث الأوربي وأصبحت الفروسة العربية والنخوة التركية والفتوة الفارسية والبطولة الهندية والغيرة الافغانية حديثا من احاديث التاريخ وأصبحت الحياة في حواضر الشرق بل وفي بواديه نسخة قاصرة ممسوخة من الحياة الغربية المصطنعة لها ضرائها وبئت لها سرائها ولها الغرم دون الغنم .

أصبح الناس في كل بلاد في إيثار الحضارة الغربية يسيل بهم سيلها الجارف ولا يملكون من أمرهم شيئاً وأصبح الوالد ولا يملك ولده والعامل لا يملك أهل بيته بل وأصبح الانسان لا يملك نفسه أمام الهوى وانتقاد المجتمع اللاذع ، ووخز الضمير وغاص الناس في بحر المدنية الى آذانهم فترى الصعاليك من العجم يفدون في حلة ويروحون في أخرى وترى الحفاة العراة العالة من العرب رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ويتفاخرون باقتناء السيارات الأميركية من أحدث الطراز وأفخر الأنواع حتى يخاف أن تنقرض الخيل العتاق من أرض الجزيرة التي ملأت التاريخ والأدب بحديثها وأخبارها

شحنت البضائع الغربية أسواق الشرق الإسلامي وانبثت شرائن التجارة الغربية وعروقها — وهي طلائع السيادة الغربية وسيطرتها السياسية وسهامها التي لا تطيش — في جوف أقدس البلاد الاسلامية وأحشائها وجاست خلال الديار وأصبح أهلها عالة على البضائع الأجنبية حتى عادوا لا يصورون الحياة والمعيشة بغيرها ، ولا يقضون حقوق الأعياد والأفراح الا بها . وامتصت هذه البضائع أموالهم بل دمائهم كالاسفنج تشربها في بلادهم وصبتها في بلادها ، وهكذا أصبح ما يكسبه المسلم بعرق جبينه وكد يمينه وبرزئه في أخلاقه وعلى حساب دينه ينتقل الى البلاد الأجنبية .

التجأت الحكومات الاسلامية لتحقيق مشاريعها العمرانية كما تقول أو لقضاء مآرب رجالها كما يقول الناس الى الإستدانة من الدول الاجنبية فخفت لذلك ورحبت به ورضخت لها بعض المال على شروط تجارية وامتيازات سياسية وأقبلت على البلاد الاسلامية تحلب أضرعها وتستخرج الذهب الوهاج وماء حياة الصناعة والتجارة (البترول) من بطونها ويتهافت الفقراء الذين أجهدتهم الضرائب وتكاليف الحياة على أجورها وخدمتها تهافت الفراش على الضوء والجياع على المائدة وهكذا تصبح بلاد الاسلام بين أخطار من الاتحاد والاحتلال الاجنبي .

ثم هنالك « الطابور الخامس » وهو ذلك الأدب المسلول المسموم الذي ولدته الثورة الفرنسية وأرضعته الفوضى الخلقية والإباحة فى اوروبا وغذته الشيوعية ، ذلك الأدب الخليع المستهتر الذى ينبت فى القلوب النفاق ويسعى غرس الشهوات ، ويقوض دعائم العمران ويفسد نظام الاسرة ويسخر من كل فضيلة ويستهين بكل أدب ونظام ويزين للقارىء مذهب اللذة والإنتفاع وانتهاز الفرص ويلخص التاريخ ويوجز الفلسفة والعلم فى حب المال والميل الجنسى ويصور العالم كله كأنه ليس الاظهور هاتين العاطفتين وليس وراء ذلك حقيقة عليا مبدأ سام أو غرض شريف ،

وقد انتشر هذا الطابور فى انحاء العالم عن طريق الادب والروايات والمجلات والراديو والسينما وتأثر به الحاضر والبـــاد وتحدثت به العواتق فى خدورها ، وسار ينخر الحضارة الدينية والأدب الاســـلامى حتى تسرب الخطب اليوم الى لبابه ،

وهكذا اصبح العالم كله شعوبا وحكومات وافراد تحت سلطان المادية والقوة والجاه والشهوات قد شغلت منه كل موضع ومنفذ وملكت عليه جميع مشاعره واستهلكت فى سبيلها جميع مواهبه وقواه وتفكيره وذكائه وخلقت فى الانسان نفسية لا تؤمن إلا بالمحسوس ولا تفكر إلا فى اللذة والهناءة والسعادة الدنيوية ، ولا تهتم الا بهذه الحياة ومطالبها الكاذبة التى ما أنزل الله بها من سلطان والتى إنما فرضتها على الانسان الحياة المزورة والمجتمع الفاسد والتجارة الجشعة .

كيف يحل فى هذه النفس المادية الدين الذى أساسه الايمان بالغيب وإيثار الآخرة على العاجلة الذى يقول « وما هذه الحياة الدنيـــا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحياة لو كانوا يعلمون » والذى يقول « فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى »

والذى يقوله نبيه صلى الله عليه وســـلم « اللهم لاعيش الا عيش الآخرة » ويقول « حفت الجنة بالمكارة »

إذن فالمادية فى هذا العصر هى علة العلل وعدو الدين الألد ومزاجه الأكبر وإن الغرب هو زعيمها الذى تولى كبرها ووكرها الذى تطير منه وتأوى اليه وفيه تبيض وتفرخ

فأين ذلك البطل الذى يمثل قصة الآدمى مع الجنى على مسرح التاريخ والواقع؟ وأين تلك الأمة التى تعارض هذا التيار الجارف وتأبى أن تفقد شخصيتها ومقومات حياتها وتغلب على امرها فتحول هذا التيار وتقلبه رأسا على عقب أو تقف فيه كجبل رأسى أو صخرة صماء ، فيحول التيار مجراه ويتخذ طريقا آخر .

إن البطل الذى يمثل قصة الآدمى مع الأجنبى ويفتك به هو رجل الساعة وبطل الأبطال وفتى الفتيان

وإن الأمة التى تعارض هذا التيار وتغير مجراه هى امام الأمم المبعوثة إلى العالم فأين ذلك البطل ؟ وأين تلك الأمة ؟ ؟ هل تجيب الأمة الإسلامية وهل يجيب العالم العربى عن هذا السؤال ؟ !